أخوك أم الذئب ...؟

الأستاذ محمود محمد شاكر

أجل ! ! هذا هو العالم المغرور الذى ظن خير الظن بمدنيته ، وأثنى عليها ثناء الأم على عذرائها ، ونفض عليها من نحاسين الخيال فنوناً كذُنابَى الطاووس ، وأدار عليها محاسن الندّ والمندل والعود من عطر الشهوات واللذات ، وأحاطها بالبقرية الطبية التى توجد فى كل شىء شيئاً جديداً يدخل على العقل إبليساً صغيراً ليُضل عن سبيل الحق ، ويضع فى الثمرة حلاوة تلذ ونشوة تسكر ، ثم زاد فأعطى المادة المتبدلة الفانية تدليساً يجعلها فى فتنة الرأى ثابتة خالدة ثم غلا فجعل النفس تطلق أهواءها جميعاً لتحرز من لذات الحياة كفايتها ، إن كان لأهواء النفس كفاية

هذا العالم المغرور يقف اليوم فى فتنين التقتا للقتال فى سبيل الأهواء الغالبة والشهوات المستحكمة . وفى هذا القتال تتكشف لمن أبصر حقيقة هذه المدنية ، وحقيقة أغراضها التى عملت لها وعمدت إليها ، وحقيقة الروح التى يتعامل بها الاجتماع الإنسانى الذى تعيش به هذه المدنية الأوربية التى تنكر من الحياة وتعرف وتدعى لنفسها إسقاط ما أنكرت وإقرار ما عرفت

وفى كل يوم تتجدد أحداث الحرب ، فتتجدد معها أساليب الغرائز الوحشية المصبوغة رحمتها بأصباغ الافتراس ، وفى كل يوم يخلع الوحش عن مخالبه ذلك المخمل الناعم الذى دسها فيه ، ويهجم بطبائعه على فريسته ليعلن بذلك أنه هو الوحش : قانونه المنفعة ، وشرفه المنفعة ، وصداقته المنفعة ، وأدبه المنفعة ، ودينه المنفعة . فهو لا ينفك من منفعته فى مثل السعار إذا أخذ الوحش فاستكلب فهاج فعاثى ، لا يهدأ حتى يعافى هذا السعارَ ما يشفيه أو يرده أو يقدعه ، وهو لا يرعى فى ذلك حرمة ، ولا يكفه شرف :

وكان كذئب السوء لما رأى دماً بصاحبه يوماً أحال على الدم

وقبيح بنا ـ نحن الشرقيين ـ أن نغمض أعيننا عن النظر إلى هذه المدنية التى أخذت تنهار تحت قصف المدافع وهد القنابل وزلازل الحرب ، وأن ننام عن مستقبل أيامنا ، وألا ننفض هذه المدنية نفضاً لنأخذ منها وندع ، ولنعرف سوء ما تركت أنيابها فى جسم أوطاننا ، ونتبين حقيقة النفوس السمومة التى أصبحت فى الشرق فاشية تعمل على إدماجه فى حضارة غربية عنه ، لا يطيقها إلا على نكد ولا يحتملها إلا عنتاً وإرهاقاً وغروراً

إن رؤوساً من الناس فى هـذا الشرق قد طالت بهم أيامهم حين أقبلت عليهم الدنيا ، فأخذوا على الرأى العام منافذه كلها ، وصرفوه ما شاءوا بما شاءوا كما شاءوا ، لم يغلب عليهم إلا ذلك الداء الوبيل الذى قبسوه من مدنية الغرب ، داء المنفعة . طلبوا المنافع لأنفسهم ، فاستبدوا فى غير ورع ، وتجبروا فى غير تقوى ، وعملوا على أن يكون سلطانهم فى الأرض كسلطان الله فى السماء : يمحو ما يشاء ويثبت ، علواً فى الأرض واستكباراً ، قاتلهم الله أنى يؤفكون !

إن الشرق لا يؤتى ولا يغلب إلا من قبل أهله . هذه هى القاعدة الأولى فى السياسة الاستعمارية الماضية ، فعملت هذه السياسة على أن تنشر فى الشرق عقولاً قد انسلخت من شرقيتها وانقلبت خلقاً آخر ، وقلوباً انبتت من علائقها ولصقت بعلائق أخر ، وبهذه العقول المرتدة والقلوب المرتكسة استطاع الاستعمار أن يمد للشرق طريقاً محفوفاً بالكذب والضلال والفسوق ، يخدعه عن الصراط السوى الذى يفضى به إلى ينبوع القوة الذى يتطهر به من شرور الماضى وأباطيل الحاضر ، فيمتلك من سلطان روحه ما يستطيع به أن يهدم الأسداد التى ضربت عليه ، ويجتاز الخنادق التى خسفت حوله

لقد لقينا بهؤلاء المنت حين استحكم لهم أمر الناس فتسلطوا عليهم بالرأى وأسبابه ، فخلطوا بسوء آرائهم على الشرق ليلاً من الاختلاف لا يبصر فيه ذو عينين إلا سواداً يختنق إذ يستبين . وكانوا له قادة فاعتسفوا به كل مضلة مهلكة تسل من قلب المؤمن إيمانه ، وتزيد ذا الريبة موجاً على موجه . فلما كتب الله أن يدفع مكر هؤلاء بقوم جردوا أنفسهم للحق ، رأوا أن يلبسوا للناس لباساً من النفاق يترقون به إلى التلبيس عليهم بما حذقوا من المداورة ، وما دربوا عليه من فتن الرأى ، وما أحسنوا من حيلة المحتال بالقول الذى يفضى من لينه إلى قرارة القلوب ، حتى إذا استوى فيها لفها لف الإعصار ، واحتوشها من أرجائها ، ثم انتفض فيها انتفاض الضرمة على هبة الريح فى هشيم يابس .

وقد أقبلت اليوم على الشرق أيامٌ تتظاهر فيها الأقدار على أن تسلم إليه قيادة مدنيته الجديدة بعد طول الابتلاء وجفاء الحرمان ، وجاءت مع هـذه الأيام فتنٌ يُخشى أن تضرب أولُه بآخره حتى لا يقومُ شيءٌ هو قائمٌ ، ولا يبقى من أعلام الماضى إلا آثار التاريخ التى تقف شواهد على ما مضى وآيات لما يستقبل . فإذا كان ذلك ، فإن الحكمة والحزم والجد أن نميز الخبيث من الطيب ، وأن نختار لأنفسنا قبل البدء ، وأن يلى منا أمر القيادة من هو حق صاحبها والقائم عليها والمحسن لتصريفها وتدبيرها وسياستها ، وإلا انفلتت من أيدينا حبال الجمهور المتحفز ، فانتشر على وجوهه وتفرق ، وكأن ما كان لم يكن ، وكأن الفرصة قد عرضت لنا لتدع فى قلوبنا بعد ذلك حسرة لا تزال تلذع بالذكرى .

إن أكثر هؤلاء الذين وصفنا قد وجدناهم يمدون أعناقهم يتطاولون مرة أخرى للوقوف فى مقدمة الطلائع الشرقية ، ورأوا — من أجل ذلك — أن يماسحوا الرأى العام على بعض أهوائه وعلى طائفة من أغراضه ، ليستمر لهم ذلك المكان الذى حازوه من قبل ، وليكونوا فى الشرق الجديد ما كانوا فى أيامه السالفة . فهم يبدون له ما لا يستقدون عليه نياتهم ، ويحدثونه حديث من طب لمن حب ، وهم كانوا قبلُ أعانوا عليه ، إذ أفسدوا صالح أعماله بالآثم من أعمالهم وآرائهم ، وهم كانوا عليه حرباً ، إذ نزعوا من يديه سلاح القتال فى سبيل حريته واستقلاله وانفراده بخصائصه التى ورثها وخص بها ، وعمل الجيل بعد الجيل فى تنقيتها له تنقية المدّرة من بين الحب

ليس اليوم أوان يترك الشرق عنانه فى الأيدى التى لعبت به وغرّرت ، ولا هو يوم التهاون فى القليل لأنه قليل ، ولا هو يوم إحسان الظن بمن يحتال للظفر بحسن الظن ، ولـكنه اليوم الذى يتفلت فيه من كل ضلالة وعبث ، ومن كل مرتفق للنفع مشرف للمصلحة ، ومن كل سبب من أسباب التدمير . فإذا فعل ذلك ، وأعطى كل ذى حق حقه ، وامتاز المجرمون ، وخلص له المخلصون واستمان بحرية اختياره على إقرار الناس فى مواضعهم وعلى مراتبهم ، فيومئذ يجد القدرة على انتزاع حريته من أنياب الغاصبين ، ويصيب مهاد الطريق إلى الغاية التى ينظر إليها بآماله وأشواقه نظرة العامل لا نظرة الحالم المتخيل

وأخوف ما نخافه هو ما أوتى هؤلاء من الرفق واللين وحسن المجاملة ، وأنهم قد أحكموا معرفة الأسباب التى بها يأخذون بأيدى الناس وعقولهم ، وأنهم قد أوتوا نصيباً من الصيت يتغلب بهم على ما يعترضهم أو يردهم ، وأن الناس أسرع اتباعاً لما ألفوا وحنيناً إليه ، وأن البلبلة التى تأتى مع الحروب وتمتد فى أذيالها ، تدع الناس حيرى غرقى يتلمسون فى كل شىء شيئاً يتعلقون به ، فإذا لم نأخذ من الآن فى جد من الأمر ، ولم نصرف جهودنا إلى اختيار الأصلح فى كل شىء ، فما بد من أن تنجلى الغمايات بعد عن الدنيا لتطبق علينا عماية مصفقة كالظلام المصمت . ويومئذ نرتد على أعقابنا حسرى عناة كأسوأ ما مر بنا من زمن ، وتضيع الفرصة السانحة ونحن غرقى فى بحر طام قد نزح عنا شاطئه بعد الدنو

فعلينا الآن أن نثق بأنفسنا غاية الثقة ، لأن الثقة بالنفس هى جيش الحرية ، وأن نشك كل الشك فى أصحاب الرأى ومن يتعرضون للامارة عليه ، لأن الشك فى هؤلاء هو حارس الحرية ، وأن نشتد فى مطاردة الضلال والعبث ، لأن هذه الشدة هى سلاح الحق وسلاح الحرية . فإذا غلب علينا التهاون فى شىء من ذلك ، فإنها ثغرة تتدفق منها على الشرق مرة أخرى ضلالات وفتن كقطع الليل المظلم ، ويعجز أهله عن حمل أعباء الحضارة الجديدة التى اختارهم الله مرة أخرى للعمل عليها والقيام بها . فما بد من أن ينفض الشرق بعينيه ورأيه كل بارقة وكل غمام ، مخافة أن تنزل الصواعق عليه من حيث ظن الغيث

ليس فى الشرق قوى تضارع تلك القوى الهائلة التى صبت من الحديد والنار وأسرار الكون ، وليس فيه ذلك الغنى غنى الاستبداد والجبروت والسياسة ، وليس فيه ذلك الجمهور العظيم من العقل العامل لإيجاد القوة فى كل شىء لاستخلاص المنافع من كل شىء ، ولـكن هذا الشرق لا يزال يحتفظ بأعظم قوة تخضع كل هذه الأشياء لسلطانها الذى ينال النصر ما تعاون ولم يتفرق . وتلك هى قوة الروح ، وقوة الخلق ، وقوة الاستمرار إلى النهاية مصابرة لا ذلاً ، وإيمانا لا عناداً ، وتسليما لا غفلة . فعلينا أن نعرف فضائلنا التى توارثناها ، وأن ننفى عنها ما خالطها من خبث الجهالات القديمة التى تراكمت عليه فقصدت به أزماناً